بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كان من المنطق أن يظهر هذا الكتاب قبل - أو مع - كتابنا « أبى حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام » (سنة ١٩٤٥ م) أو كتاب « مالك ابن أنس » . فلقد تتلمذ أبو حنيفة ومالك للإمام الصادق ، وتأثرا كثيرًا به ، سواء فى الفقه أو فى الطريقة . ومالك شيخ الشافعى . والشافعى يدلى إلى أبناء النبى ﷺ بأسباب من العلم والدم . وقد تتلمذ له أحمد بن حنبل سنوات عشرة . فهؤلاء أئمة أهل السنة الأربعة ، تلاميذ مباشرون أو غير مباشرين للإمام الصادق .

غير أن تعاقب الأئمة الأربعة لأهل السنة . وتقارب مذاهبهم فى تعبيرها عن فقه « أهل السنة » ، دفعا إلى وجه آخر . فظهرت كتبنا عنهم بين سنتى ١٩٤٥ ، ١٩٧٠ للميلاد .

وإلى ذلك فقد تأكد فى كتابنا « توحيد الأمة العربية » (سنة ١٩٦٥ م) أن « وحدة القاعدة القانونية » هى الطريقة المثلى لربط المسلمين ، فى شتى أقطارهم ، بتشريع إسلامى شامل . تضؤل دونه التشريعات المعاصرة فى الغرب أو فى الشرق . والفقه « الشيعى » واحد من النهرين اللذين تسقى منهما حضارة أهل الإسلام . وإليه لجأ الشارع المصرى فى هذا القرن لإجراء إصلاحات ذات بال فى نظم الأسرة المصرية .

والإمام جعفر الصادق يقف شامخًا فى قمة فقه أهل بيت النبى عليه الصلاة والسلام . هو فى الفقة إمام . وحياته للمسلمين إمام . والمسلمون اليوم يلتمسون فى كنوزهم الذاتية مصادر أصيلة للنهضة ، مسلّمة غير مخلطة ولا مستوردة .

هو الإمام الوحيد من « أهل البيت » الذى أتيحت له إمامة دامت أكثر من ثلث قرن ، تمحّض فيها مجلسه للعلم ، دون أن يمدّ عينيه إلى السلطة فى أيدى الملوك . وبهذا التخصص سلّم الأمة مفاتح العلم النبوى .

ومنه يبدأ التأصيل الواضح لمنهج علمى عام للفكر الإسلامى . نقلته أمم الغرب فبلغت به مبالغها الحالية . وعمل به بين يديه ، ثم أعلنه ، تلميذه جابر ابن حيان أول كيمائى كما تبايع له « أوروبة الحديثة » ، وهو « منهج التجربة والاستخلاص » ، أى الاعتبار بالواقع وتحكيم العقل ، مع النزاهة العلمية .

فالإمام الصادق هو فاتح العلم الفكرى الجديد ، بالمنهج العقلانى والتجريبى ، كأصحاب الكشوف الذين فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنين .

والإمام الصادق هو الإمام الوحيد فى التاريخ الإسلامى ، والعالم الوحيد فى التاريخ العالمى ، الذى قامت على أسس مبادئه « الدينية والفقهية والاجتماعية والاقتصادية » دول عظمى .

ومصر تذكر منها أكبر دولة عرفها التاريخ فيها من عهد الفراعنة – الدولة الفاطمية – التى امتد سلطانها من المحيط الأطلسى إلى برزخ السويس . ولولا هزيمة جيوشها أمام الأتراك لخفقت أعلامها على جبال الهملايا فى وسط آسيا .

والعالم كله مدين لها بمدينة « القاهرة » .

والمسلمون يدينون لها بالجامع الأزهر ، الذى حفظ القرآن والسنة واللغة العربية ، وعلومها كافة ، ويدينون لتعاليم الإمام بقيام دولة كبيرة فى إيران . ومجتمع عظيم بالعراق . ومعاهد علمية يتصدرها النجف الأشرف ، وشعوب قوية فى الهند وباكستان واليمن وأفغانستان ووسط آسيا ولبنان وسورية وكثير سواها .

وهو الإمام الذى علّم بالمواقف التى وقفها ، قدر ما علّم بالمبادئ التى أرساها . فالمواقف أعمال . وهى أعلى صوتاً من الأقوال . ولقد يعدل الموقف الواحد جهاد عمر كامل ، أو مهمة حياة رجل .

وهو ، بمكانه من « أهل البيّت » . وحقه فى الخلافة ، وإمامته للفقهاء بلا استثناء ، كان غرضًا يطلبه أعظم خلفاء بنى العباس ليضيفه إلى قوائم القتلى من صناديد القواد ، أو الشهداء من « أهل البيت » .

وكان درسًا من السماء أن يسيطر الإمام على الميزان إذ يلتقيان ، فيضعف الطالب عن المطلوب ، ويرتفع الإمام الصادق بالخليفة القاتل إلى مستوى الحاكم العادل .

* * *

والمستقبليون الذين يتكلمون اليوم عن الأخذ بأسباب النهضة العلمية ، كمثل السياسيين الذين لا يرون النهضة بالغة شأوها إلّا أن تكون شاملة لأمور الدين والدنيا - هؤلاء وأولاء ، بحاجة إلى أن يظهروا على حياة الإمام الصادق ، ليروا مقدار ما تفلح الدعوة الصادقة بالمبادئ الصحيحة ، والخطط المنجحة ، فى إقامة دول ، ومجتمعات ، قوامها الدين والعلم والعدل والاقتصاد العصرى .

وكمثلهم دعاة الإصلاح الذين يمثلهم الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر فى النصف الأوّل من هذا القرن عندما قال : « إن الأمم ليست بكثرة أفرادها وعديدها ولكن بروحها وإيمانها وخلقها . ولعمرى إن سبيل ذلك لهو العلم » - وقال « إن كل إصلاح لا يقوم على أساس تقوية الروح الدينى فى الأمة لا بقاء له . ولا خير فيه . وإذا قلت الروح الدينى فإنما أريد الأخذ العملى بالشريعة عن إيمان وثقة . لا أن نكتفى بما ينص عليه الدستور من أن دين الدولة هو الإسلام . ثم نكون فى أكثر أحوالنا وتشريعاتنا وأخلاقنا على خلاف ما يأمر به الإسلام وينهى عنه الإسلام » .

والله نحمد : لقد غيرت مصر فى سنة ١٩٧١ دستورها الذى أشار الشيخ إليه . ونصت على أن « الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع » وهى دعوة صادقة لتقوم القوانين المطبقة جميعًا على أساس الشريعة .

* * *

وبعد : فالكتاب الحالى يبلغ غرضه إذا كان صوتًا يدعو إلى الوحدة . والمسلمون تجمعهم أصول فكرية واحدة ، وإن اختلفت الفروع أو تعددت الآراء . وفى تعدد الآراء ثراء . ولما عرض تلميذ لأحمد بن حنبل تسمية كتاب له « كتاب الاختلاف » قال له « سمه كتاب السعة » .

ألا : وإنه لا صلاح للمسلمين والعرب اليوم فى مواجهة التحدى العالمى إلا بالوحدة .

والعالم الغربى الذى تهز الأفكار المادية والإلحادية عقائده ، ويزعزع الرعب النووى اطمئنانه ، بحاجة إلى مبادئ الإسلام ، وعرض شريعته علميا ، كهيئة ما عرضها الإمام الصادق على الملاحدة فى عصره فكانوا يسلمون . وكمثل ما علّم تلاميذه ومعاصريه قواعد العلم والفقه والاقتصاد التى تكفل للمسلمين النماء الفكرى والاجتماعى و الاقتصادى .

والعالم الغربى ، الذى يحسب للعالم الإسلامى حساب الطاقة التى خزنتها السماء فى الأرض الإسلامية ، التى جعلها الله مقرًّا لبيته العتيق ، وحساب المعادن التى تعكس الأقمار الصناعية لمعانها وإشراقها كلما صورت أرض العرب ، هذا العالم الغربى الذى جمعته الحروب الصليبية فى مقابلة العالم الإسلامى ، والذى خططت حدوده الحالية حروب ومعاهدات دينية ، وازدهرت قاراته الجديدة بعد هجرات تجرى فى جذورها النوازع الدينية ، هذا العالم الغربى جدير بأن يواجهه المسلمون كالبنيان المرصوص ، لا كهيئة الحجارة المتناثرة ، قد بعثرتها فى مهاب الرياح الأربعة أمم غلبت عليها بالقوة ، من الخارج ، وبالتخلف الاجتماعى والعسكرى والاختلاف الدينى فى الداخل .

والمسلمون اليوم لا يتنازعون سلطة كما كان الأقدمون منهم يتنازعون من أجل السلطة . وإنما يتنازع غيرهم السلطة عليهم .

وهم اليوم لا يتقاسمون القوّة وإنما يتقاسمون الضعف المادى ، فى حين يختزنون القيم العليا للتقدم ، والقوى التى تحصى وتعد . فحيثما ابتغوا الوسيلة وجدوا نصر الله .

ويوم توجد فينا إرادة الانتصار سننتصر .
والله متم نوره .

* * *

حياة الإمام تنقسم فى ترجمتها قسمين : الأول عن الرجل ، والثانى عن علمه . وعلى ذلك وردت الصورة التى صورنا فيها هذه الحياة فى قسمين . كل منهما فى ثلاثة أبواب .

القسم الأول : يدور حول ظهور الإسلام وتألق « علىّ » وأولاده من « فاطمة الزهراء » فى الصدارة من الأشخاص والأحداث ، والبيئة التى نتج فيها الإمام الصادق . فتعاونت على إعداده ظروف الوفاء ، أو العداء ، لأهل البيت ، لتهيئ منه إمامًا خصيصته تعليم العلم الذى تلقاه عن جديه ، وطريقته الأسوة الحسنة فى أعمال حياته ، وتحمل التبعات حيث تزوغ الأبصار .

والقسم الثانى : من الكتاب يعرض تصوّر المؤلف للعلم الذى علمه الإمام ، والمدرسة التى أنتجته ، والمنهج العلمى ، العالمى ، الذى أخذ به العلماء الدينيون والفقهيون ، والرياضيون والفلكيون والكيمائيون وعلماء الطبيعة الإسلاميون ، ونقله عنهم رياضيو العصور الوسيطة فى أوربة ، ليصير « منهج التجربة والاستخلاص » الذى يعمل به الفكر المعاصر ، بعد إذ ترجم من العربية فى جنوب فرنسا وأسبانيا وصقلية وسواها من جامعات أوروبة ، وسبق إلى التنويه به « روجير بيكون » ثم نسب إلى « فرنسيس بيكون » بعد ثلاثة قرون – وكذلك المنهج السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى أقام الدول العظمى والمجتمعات الإسلامية التى يباهى بها المسلمون فى العصر الوسيط وفى العصور الحديثة .

وفى هذا القسم باب أخير تبدو فيه عدالة التاريخ مصححّة لانحراف الأعداء وافتياتهم على أبناء علىّ . كما يظهر فيه نصر الله للمسلمين إذ يتحدون .
والله نسأل أن يقينا الزلل .